قراءة في قراءة لأدب الثورة

كتاب الأدب الجزائري وملحمة الثورة –أنموذجا–

Metacritic in literature of the revolution
The book of Algerian literature and the epic of the revolution
- a model –

*د. فاطمة الزهراء حبيب زحماني

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون جامعة وهران1، (الجزائر)، fz.zahmani@hotmail.com

مختبر الدّلالة في المستويات اللّسانية في التّراث الأدبي الجزائري، جامعة وهران1.

تاريخ الاستلام: 2021/05/24 تاريخ القبول: 2021/05/30 تاريخ النشر: 2021/06/01

ملخص: ما أسالت ثورة حبرا في تاريخنا المعاصر مثلما أسالته الثّورة الجزائرية المجيدة، مقولة مشهورة، وسمت جبين الجزائر بوسم الشّرف، لأنّها ثورة قامت من رحم معاناة طويلة الأمد، عانى الشّعب الجزائري خلالها ويلات القمع والقهر، فقد رفض من أوّل يوم وطأت فيه أقدام المستعمر أرضه، سياسة التّدجين والمسخ، وما انجر عنها من عبث بلغته ودينه وتاريخه وثقافته. فاحتقن الشّعب؛ كلّ الشّعب، بما فيه الأدباء، ناثرين كانوا أم شعراء، وكتبوا أجمل ما كتبوا من أدب، معبّرين عن حبّهم المطلق للجزائر وقضيّتها العادلة. لكن وفي فترة السّبعينيات من القرن الماضي تعالت أصوات بعض النّقاد، مثل صوت الأديب والصّحفي بلقاسم بن عبد الله، لتشكّك في قيمة أدب الثّورة الفنية ومستواه الجماليّ، وصرّحت بجرأة أنّه لا يرقى إلى مصاف روائع الشّعر العربي. وسنحاول من خلال هذه المقالة ممارسة نقد النّقد الذي نحسبه سيكون منصفا لقضيّة أدب الثّورة الجزائرية.

كلمات مفتاحية: أدب، بلقاسم بن عبد الله، نقد النّقد، الثّورة الجزائرية، شاعر الثورة.

Abstract: A well-known saying: no revolution has spilled ink in our contemporary history like the glorious Algerian revolution, because it was a revolution born in suffering, from the first day the colonizer set foot on its lands, the people rejected the policy of domestication and metamorphosis, which caused the falsification of its language, religion, history and culture. However, in the seventies of the last century, the voices of some critics, like the writer and journalist Belkacem bin Abdullah, raised their doubts about the value and the aesthetic level of the literature of the revolution. for that We will try through this article to exert a criticism of the criticism

Keywords: Literature, Belkacem Ben Abdullah, metacriticism, the Algerian revolution, poet of the revolution.

*المؤلّف المرسل: فاطمة الزهراء حبيب زحماني، الإيميل: fz.zahmani@hotmail.com

1. مقدمة :

إنّنا نشعر بالانتماء المطلق إلى قضيّة الثّورة الجزائرية، وهي الموضوع الجنيني لكتاب "الأدب الجزائري وملحمة الثّورة"، نعم نحن ننتمي إليها انتماء غير مشروط، وإنّنا عندما شرعنا في كتابة هذه المقالة انتابتنا مشاعر مقدّسة، مشاعر الوطنية التي تقشعر لها الأبدان. ثمّ إنّه من يمجّد ثورة بلده ويؤمن بملحمتها لابدّ أن يكتب شيئا عنها وفيها ولها. وهذا ما حدا بثلّة من أدباء الجزائر المعاصرين أن ينتجوا أدبا قائما بذاته، يسمّى بالأدب الثّوري، وهو نوع من الأدب تبنّى مضامينَ مناهضة للتّواجد الفرنسي في الجزائر فتمرّد من خلاله عليه وراح يؤسّس لقواعد النّضال السّياسي بل حتى للمقاومة المسلّحة[1]. ويكفيه فخرا أنّه أدبٌ رافق الثّورة بل وتنبّأ بها وزاد من وعي الشّعب بالفكر الثّوريّ*.

2. اختيار الكتاب:

لقد وقع اختيارنا على كتاب: "الأدب الجزائري وملحمة الثّورة" للكاتب «**بلقاسم بن عبد الله**» (ت 2014)[2]، بدافع ذاتي محض نفضّل ألاّ نبوح به في هذا المقام، وردّدنا عنوانه كأنّه ترنيمة!: "الأدب الجزائري وملحمة الثّورة" دون أن نطّلع على محتواه، فانطبع لدينا أنّ الكاتب يريد من خلاله إبراز مدى مساهمة هذا الأدب في إيصال صدى الثّورة إلى أبعاد زمانية مديدة وآفاق مكانية واسعة، إلاّ أنّ القراءة الاستكشافية دلّتنا على ما في نفس الكاتب «**بلقاسم بن عبد الله**»، رحمه الله تعالى، من عتابه حينا ولومه أحيانا أخرى لأدباء الجزائر في فترة الثّورة، شعراء وناثرين، على عجزهم عن مواكبتها في عزّ قوّتها وعنفوانها، فجاء أدبهم هزيلا حسب رأيه[3].

وهنالك حدثت الصّدمة! كيف لأديب وناقد جزائري أن ينتقد أدب الثّورة؟ فتأهبنا لنقد نقده، بدافع التّعصب المحض، معوّلين على شرعية نقد النّقد في الأدب**. وقد جمعنا الجأش لأنّنا ندرك صعوبة نقد النّقد، فهو يُؤخذ من زاوية مغايرة لمن مارس النّقد أصلا، فلا نستطيع أن نكون محايدين أبدا، لذلك لا بدّ لنا من "أدوات حجاجية" تؤهّلنا لنتصدّى لمن لا نتّفق معه في الرّأي.

1.2 نقد النّقد:

مصطلح نقدي مفعم بالحمولات الفلسفية والمنهجية، قيل عنه: "مهما يكن من أمر هذا الوضع المعقّد فإنّه يقدّم حالة نموذجيّة لدارس الهرمنيوطيقا الأدبية، مثلما يقدّم مادّة غنية لألوان مغايرة من الدّرس النّقدي، وأعني ما يطلق عليه اسم نقد النّقد حينا، أو يطلق عليه اسم ما بعد النّقد حينا آخر. وإذا كانت الهرمنيوطيقا ترادف في عمومها نظرية القواعد التي تحكم التّأويل، فتحكم تفسير نصّ بعينه من النّصوص، أو مجموعة من العلامات يمكن النّظر إليها باعتبارها نصا، فإنّ الهرمنيوطيقا الأدبية هي نظرية القواعد التي تحكم عملية فكّ شفرة العمل الأدبي، باعتبارها عملية تبدأ من المعنى الظّاهر للنصّ أو المعاني الأُوّل بلغة عبد القاهر الجرجاني لتنتهي إلى المعنى الباطن أو المعاني الثّواني بلغة عبد القاهر الجرجاني أيضا"[4]. والقول على القول، أو كما يمكن أن نعبّر عنه بهرمنيوطيقا الأدب، لابدّ أنّه فعل إنساني تابع لطبيعة الإنسان نفسه ولغته وإبداعاته، بل تابع لنظام الكون كلّه، في تمدّده واتّساعه فلا تحدّه حدود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وعموما فإنّ مثل هذا النّشاط الفكري والنّفسي، جانب الفكر فيه واضح، أمّا جانب النّفس فيه فهو مغيّب أحيانا، بالرّغم ممّا تقوم به الدّوافع المعنوية من إدارة له، فقد نغضب وننتصر عندما نسمع حكما كحكم بلقاسم بن عبد الله ومن سار على منواله، بأن أدب الثّورة كان هزيلا مقارنة بعظمة الثّورة الجزائرية نفسها. ونحن لن ننحرف عن سمت العرب إذا مارسناه، "فهو قديم في مادته حديث في مصطلحه، له علاقة بكثير مما دارت حوله مناظرات العرب القدامى ومساجلاتهم، من قضايا أدبية وبلاغية ونقدية نظرية وتطبيقية لم نشكّ في دلالتها"[5]. ومن هذا وذاك أخذنا الشّرعية في تطبيقها في مقالتنا.

2.2 مواقف وتصريحات النّاقد «بلقاسم بن عبد الله»:

سنتتبّع ما صرّح به النّاقد «**بن عبد الله**» بدءا بمقدّمة أسماها: "مقدمة الطّبعة الأولى"، قال فيها: "تُرى إلى أيّ حدّ نستطيع العودة إلى النّصوص الأدبية عامّة، والشّعرية خاصّة باعتبارها وثائق تاريخية؟"[6] إلى غاية قوله: "ما حجم ووزن الأمانة والموضوعية في تلك النّصوص بالنّسبة للأحداث الكبيرة والوقائع الصّغيرة؟ وهل يستطيع الأديب أن يكون شاهد عصره؟"[7].

وكأنّي به يمهّد لرأيه ويقدّم تقييما أو تقريرا سلبيا عمّا قرأه من أدب الثّورة، ليصرّح بعدها قائلا: "إنّ ما ظهر من إنتاجات، وكتابات جزائرية عن هذه الثّورة، حتى الآن قليل من كثير بالقياس إلى ما يجب أن يكتب ويظهر، ممّا خلق ذلك الفراغ الكبير في مكتبتنا الجزائرية، خاصة باللّغة العربية، وحرم الكثير من الدّارسين والمهتمّين والقرّاء عامّة من منهل فيّاض لا ينضب معينه"[8]. وممّا قاله أيضا في نفس السّياق: "وخلال رصد وقائع الثّورة لاحظت غياب الشّعر في معظم الأحيان عن مسايرة الأحداث الكبرى التي عرفتها الثّورة في مسيرتها المظفّرة... فغالبا ما كانت تمرّ بعض الأحداث الكبرى والمناسبات التّاريخية دون أن ينطق الشّعر في وجهها، بقصيد يرتفع إلى مستوى عظمة الحدث"[9]. لعلّ الأمر واضح؛ فهذه النّصوص والآراء موجّهة رأسا إلى الشّعراء الذين عايشوا الثّورة الجزائرية. وإذا اطلعنا على مقدمّة الطّبعة الثّانية للكتاب، نلفي صاحبه يوجّه اللّوم إلى أدباء مرحلة ما بعد الثّورة ليقول: "... وهل ستتخلّى الأقلام الوطنية النّزيهة عن صمتها الرّهيب، وتعود إلى رشدها لتمارس حقّها المشروع من أجل كتابة جدّية جديدة لملاحم الحركة الوطنية والثّورة التّحريرية؟ "[10] إلى غيرها من التّساؤلات التي لازمت الكاتب في كتابه كلّه. وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب يحمل الكثير من مثل هذه الآراء والمواقف الجريئة، وإن كان صاحبها في بعض الأحيان يعود أدراجه ليمجّد من مَجَّدَ الثّورة، وما خلّفه في فترة الثّورة، وعلى كلّ فهذا ليس موضوع حديثنا.

وقد أفضت قراءتنا في هذا الموضوع إلى أن «**بلقاسم بن عبد الله**» ذهب فيما ذهب إليه مذهب «**عبد الملك مرتاض**» عندما أقرّ أنّ ساحة الشّعر كانت خالية من الفرسان عشيّة الثّورة، فقد أدّى شعراء ما بين الحربين دورهم وانتهوا بالانطواء على أنفسهم، فلم يعد «**محمد العيد**» (ت 1979م) وجيله ينظم قصائد الثّورة سوى قطع في مناسبات محدودة ينشرونها في البصائر أو المنار أو النجاح أو هنا الجزائر وأمثالها من الصحف القليلة ذات المشارب المختلفة. كما توار ى نجم «**إبراهيم بن عيسى، أبو اليقظان**» (ت 1973م)، و«**الهادي السّنوسي**» (ت 1774م)، و«**مفدي زكريا**» (ت1977م). إلاّ أنّ «**مرتاض**» كان أهدأ من «**بلقاسم**» في طرحه فأضاف قوله: " كانت القضايا التي ناضلوا من أجلها قد نضجت وبدأت تأتي أكلها في الأحزاب السّياسية والجمعيات الوطنية ودخلت في صراع غير متكافئ مع الاستعمار منذ الحرب العالمية الثانية، وهو الصراع الذي انتهى بمجزرة الثّامن مايو التي أذهلت كلّ شاعر وكلّ مثقف وكلّ سياسي. لم يكن جيل الشّعراء الذين ظهروا بين 1945 - 1954 متفرغا للشّعر. كان يعيش الحركة الوطنية في أبعادها المختلفة، بل لقد توزّع في اتجاهاته بين الطّرفية والوطنية والرّومانسية، لم يكن كلّهم من أنصار هذا التّيار أو ذاك، كما برد الحماس للسّياسة الحزبية لأنّها لم تنتج قيادة مقنعة ولم تعبّر عن طموحات الشّعب أو تحقّق الآمال التي وعدت بها، فسكت «**مفدي زكرياء**» شاعر حزب الشّعب واشتغل بالتّجارة، وانزوى «**محمد العيد**» مردّدا: وجنحت للحرم الذي فارقته... زمنا جنوح الطّير للأوكار"[11]. كما أنّ مثل هذا الموقف يبدو حياديا وليس فيه من الحدّة والتّطرف الذي وجدناه في موقف بن عبد الله، ثم إنّ فيه ما يشفع له خاصّة عندما برّر انزواءهم بأنّ القضايا التي ناضلوا من أجلها قد نضجت، ولم يعد هناك ما يدعو للفوران.

3. في الرد على من قال بضعف أدب الثورة:

1.3 جودة أدب الثّورة:

جودة أدب الثّورة من جودة الثّورة نفسها، فرغم الخوف والفزع والذّهول من هول الأحداث، إلّا أن أدباءنا تركوا لنا أدبا ثوريا يلهب الحماسة في قلوبنا إلى اليوم. ومن مثل ما نردّ به على تلك الأحكام، أحكام الذين أنقصوا من قيمته، موقف

«**للطّاهر يحياوي**»، يرى فيه: أنّ الشّاعر مهما يكن لا يكتب إلاّ استجابة لدافع، وما دام الدّافع ذاتيا فلمَ لا يكون هو المناسبة نفسها؟ والمهم في التجربة الشعرية هو الصدق، والتحام الذات بالموضوع، والخاص بالعام، والواقع بالمثل العليا، وأن تكون الرؤية واضحة والموقف ثابتا. وبالمقابل نستطيع أن نجد بعض القصائد بل كثيرا من القصائد التي يتغنى فيها أصحابها بالحبّ أو بالفشل أو بالقلق، ولم تخضع لمناسبة معينة.

نقول نجدها فاشلة لأنّ أصحابها لا يملكون الأدوات الفنّية التي تساعدهم على التّجربة الشّعرية النّاضجة[12]، ونجد الشاعر والناقد خالد عاشور ينتصر غير مرّة في ثنايا حديثه عن قيمة أدب الثورة عندما استشهد بمقولة الشاعر حسن طلبة: "صعب أن ألاّ تكتب عن الثورة والأصعب أن تكتب عنها" ويعتبر هذه المقولة تعبيرا دقيقا عن موقف الأدب من الثورات بشكل عام، وقد تأرجح الأدب في رأيه بين موقفين: الأول عدم الكتابة حتى يختمر الحدث في بوثقة موهبة الأديب، وهو ما يحتاج ربّما لسنوات، وهو الموقف الصعب لأنه يقدم الأديب كأنما لم يتأثر بالحدث الاستثنائي. والموقف الثاني: هو الكتابة عن الثّورة في ظلّ هذه المحاذير "الفنيّة"، وهو الموقف الأصعب لما ينطوي عليه من تجاهل متوقّع لقيمة ما يكتب، ولا ننسى أنّ مهمّة الأدب الأولى هي الإمتاع الفنّي لا التّوثيق التّاريخي[13].

إنّنا نتّفق تماما مع ما قاله «**أبو القاسم سعد الله**» (ت 2013م) عن «**ابن عبد الله**»، في هذا الكتاب بالذات، من أنّ له الحقّ في قول ما يشاء، وعلى هذا لنا نحن الحقّ في قول ما نشاء. وراح يقدّم تبريرا لمواقف الكاتب قائلا: "فأنت تقرأ ما كتبه ابن عبد الله بشغف وانتباه، ولو كنت لا تتّفق معه في حكمه ومبتغاه، لقد عاصر هو أكثر القضايا التي تناولها، ومن حقّه أن يقول فيها رأيه ولو كان رأيا لا يرضي كلّ الأطراف"[14]. وكأنّنا به يحيل القارئ إلى قضيّتنا الأولى.

متّفقون على أنّه لكلٍّ رأيه وطريقته في رؤيته للأشياء، وبالنّسبة لنا فإنّ الأدب الجزائري في فترة الثّورة وما قبلها وما بعدها واكب تلك الفترة العنيفة من الوطنية والفداء والجهاد، ويكفيه فخرا أنّه بالرغم من نشأته في بلاد خطّط لها أن تكون بلادا أمّية، منذ أن استهدفت الأوقاف الإسلامية، وهدمت المدارس والمساجد، وشرّد العلماء والطّلبة، وحوربت اللّغة العربية بكلّ الوسائل والدّسائس، وبدل أن تجفّ ينابيع الأدب الجزائري الصّافية، انبعثت مرحلة جديدة أرهصت لإنتاج أدب جيّد بكلّ المقاييس، وهي الفترة التي حدّدها «**أبو القاسم سعد الله**» صاحب كتاب تاريخ الجزائر الثّقافي، بالفترة الممتدّة من 1920 إلى غاية اندلاع الثّورة عام 1954، وقد وصفها بأنّها من أخصب الفترات إنتاجا أدبيا، وأنّها بالرغم من اختلاف المستوى بين شاعر وآخر، فإنّ الحركة على العموم كانت تتقدّم وتتّسع إلى أن وصلت إلى قمّتها على يد «**محمّد العيد آل خليفة**»، و«**مفدي زكريا**».

"فعلا؛ قام شعراء الجزائر بدور لا يستهان به في شحذ الهمم وتخليد المآثر، فقد ابتكروا أساليبهم الخاصّة في بناء رؤية فنّية مستوعبة للنّسق غير القابل للسّيطرة، وقد وصف هذا الشّعر بأنّه نغمة الثّورة الأكثر انسجاما. ومهما يكن من أمر فإنّ الأدب، بما فيه الشّعر، صورة صادقة لمعاناة الشّعوب، وقد جاء ليشكّل لوحده سفرا ضخما من الأدب في العالم... ذو تسميات متباينة، ولكنّها تصبّ في مجرى واحد، منها أدب الكفاح وأدب المقاومة وأدب الثّورة والتّمرد"[15]. وممّا زاد من تقدّم واتساع الحركة الأدبية تنافس الصّحف المستقلّة في نشر القصائد، منها على سبيل المثال: الإقدام، والشّهاب، وجرائد الشّيخ أبي اليقظان، والنّجاح، والبلاغ، والبصائر. ومن أسباب تقدّم واتساع الحركة الأدبية تطوّر اللّغة العربية في المدارس ولاسيما بعد ظهور معاهد ابن باديس والكتّاني والحياة.

إنّ معظم ما كتب في أدب الثّورة الجزائرية، في رأينا، يندرج في دائرة الموقف الثّاني، وهو الاختيار الأصعب كما أسلفنا، أي الكتابة عن مقاومة الشّعب وعدم تجاهلها ولو على حساب القيمة الفنيّة، فجاء الشّعر الذي يبدو أنّه، ودون فنون القول الأخرى، أكثر مطاوعة لانفعال المبدع في حمى الحدث، أمّا النثر وهو ذلك الإبداع الذي يحتاج لفترة أكبر من الاختمار حتى تنسج خيوطه قصة أو رواية، فقد أبطأ في الازدهار نتيجة لطبيعته السردية[16]. فمعظم الذين حاولوا أن يكتبوا أدبا في صيغته النثرية لم يطاوعهم القلم بسبب عدم تشكّل نسيج روائي كاف لإنتاج أعمالهم، ثم إنّ مجرد استثمار ألفاظ الثورة وتفاصيلها، هو بحدّ ذاته أمر جديد ولافت ولّد الدّواوين الشعرية التي تتّسم بجدّة الموضوع، وهذه إضافة إلى الشعر العربيّ برمّته، فكيف لنا أن نصف أدب الثورة الجزائرية بأنه أدب هزيل!؟، هذا ويمكننا التّبيُّن من رفعة شعر الثّورة وقيمته الأدبية، بفكرة أنّه تجاوز قوالب القصيدة العمودية العربية وأساليبها التي ناسبت ووافقت حقبة تاريخية معينة، عبّرت عن أمجاد العرب وأيامهم وعن مشاعر الحب والرّثاء والمدح...، ولكنّها أبدا لم تعبّر عمّا عبّرت عنه قصائد الثّورة وأشعارها.

لعلّها الحداثة أليس كذلك؟، بل من المؤكد أنها الحداثة، فإنّنا جميعا نتّفق على أنّها ما يأتي به الشاعر من جديد في المضمون والشكل والأسلوب، "أو بتعبير آخر تعني الجديد في الصّياغة والشّكل، والواقع أن التّجديد الذي نعنيه هو أنّ هناك تغييرا حدث في لغة النّثر وطريقة التّعبير فيه منذ بداية الاحتلال عام 1830، ذلك أن أسلوب النثر في الفترة السابقة على هذا التاريخ هو أسلوب تقليدي، بل أسلوب ضعيف فيه تكلّف وتعمُّل يكثر فيه السجع والصور الجامدة المخطوطة والروح الفقهية"[17]، وإلى ما هنالك من العيوب التي كانت لصيقة بلغة الأدب الجزائري قبل الاحتلال.

ولا نعتقد أنّ أحدا يجانب هذه الفكرة أبدا، لأن الأحداث الجديدة تولّد الأفكار الجديدة، إضافة إلى محاولة الأدباء ما وسعتهم المحاولة إلى الابتعاد عن الابتذال، فقد ساير المعنى اللفظ، فجاء ذلك المعنى صاف عال على حدّ قول **محمّد طمار**[18]، وما بقي من أدب العربية إلا أبنيتها الصّرفية والتّركيبية، وتفعيلات أشعارها.

يكفي شعر الثّورة الجزائرية قيمة أنّه كان عاملا من العوامل المساعدة على تحريض الشّعب، وإذكاء جذوة الوطنية في نفوسهم، وإننا إلى اليوم تهتزّ أفئدتنا عندما نستمع إلى النّشيد الوطني، الذي كتب حروفه «**مفدي زكريا**»، وقصيدة "نحن طلاّب الجزائر" وقصيدة "من جبالنا طلع صوت الأحرار"، من تأليف «**محمّد العيد آل خليفة**» وغيرها من الأناشيد الوطنية، أليس ذلك منتهى الشّعر؟، وإلاّ ما ردّدها المجاهدون وأوقدوا بها الهمّة. ولنستحضر قول مفدي زكريا[19]:

قام يختال كالمسيح وئيدا*يتهادى نشوان يتلو النشيدا**

باسم الثغر كالملائكة أو الطّ*فل يستقبل الصباح جديدا**

لن يختلف اثنان أنّ ألفاظ البيتين قوية جزلة، ضمت بينها مصطلحات ثورية خاصة بالثّورة الجزائرية، كما ضمّت صورة فنّية واضحة التّقاسيم كأنّما هي مشهد مسرحي أو واقعي، يصوّر عظمة التّضحية وحب الشّهيد للشّهادة في سبيل الله ورمزه "المسيح"، وحبّ الوطن ورمزه "النّشيد".

2.3 أدب الثّورة من منظور تاريخي:

هناك قضية لا بدّ من الإشارة إليها، وهي مواكبة شعر الثّورة لجميع الأحداث المفصلية التي طبعت الثّورة منذ اندلاعها إلى غاية الاستقلال. وهكذا نتأكد أنّ شعر الثورة يستمدّ قيمته التاريخية والأدبية في كونه أرّخ للأحداث ووثّق لها، مع نفس

عميق جدا من الوعي والحبّ والانتماء للقضيّة، إلى درجة أنّ الشّاعر الجزائري آنذاك وغيره من أفراد الشّعب البسطاء نفوا ذواتهم وأنكروها في سبيل الجزائر الأبيّة، وقد وجدنا شيئا من هذه المعاني لدى أهالينا الذين عاشوا أحداث الثورة الجزائرية فقد رووا غير مرّة أنهم لم يحلموا بمستقبل فرديّ وإنّما كانوا يحلمون بالجزائر المستقلّة وقضيّتها القومية وهويتها الثّقافية.

وظلّت تلك الأعمال تختمر إلى أن تألقت باندلا ع الثورة التحريرية المجيدة، وبدا ذلك واضحا في شعر «**مبارك جلواح**» و«**عبد الكريم العقون**» و«**رمضان حمود**»، وجاء من بعدهم ثلّة من شعراء الثورة وعلى رأسهم ذيوعا وشيوعا، شاعر الثورة «**مفدي زكريا**»، الذي قال فيه «**عبد الملك مرتاض**»: "لقد كنّا ونحن في الشباب الأول، وفي السنوات الأولى من سنيّ الثورة الجزائرية نسمعه يلقي شعره بصوت هادر فكنا شديدي الإعجاب بما كان ينشد ومن ذلك قصيدة عينية كان ألقاها بين يديّ الملك محمد الخامس، ملك المغرب...

هذا نوفمبر قم وحيّ المدفعا واذكر جهادك والسّنين الأربعا"[20]

ثم أردف قائلا: "وذلك كلّه مع إقرارنا بوجود نظمية لا تنكر في شعر مفدي، ولكنّها نظمية تطغى عليها قعقة الألفاظ، ويحدّ من غلوائها حسن اللّباقة لدى تناول القضايا الكبيرة المطروحة في شعريته"[21]. وكان مفدي بحقّ ضمير وصوت الثّورة، فرضت أشعاره نفسها على الوطنيين يردّدونها إلى يومنا هذا. ويكفيه فخرا أنّه صاحب النّشيد الوطني، والنّشيد الرّسمي لاتّحاد الطّلاب الجزائريين.

إنّ المتأمّل في أغراض الشّعر في الفترة الممتدة مما قبلها بنحو ثلاثين عاما، ليجدها متنوّعة تنوّعا كبيرا ينمّ عن ثراء الأدب الجزائري شعرا ونثرا، فقد ورد منها المدح والشّعر الإخواني، والشّعر الذّاتي، وشعر الفخر، والهجاء، والشّعر الإصلاحي، والإسلاميّ، والشّعر السّياسيّ، وكلّ ذلك في نظرنا كفيل بأن يشعل جذوة الشّعر الثّوري، فضلا عمّا أشعّت به مقالات الشّيخ البشير الإبراهيمي وخطبه الرّاقية من وهج على الأدب الجزائري، وإنّا نقصد هاهنا المنثور منه، وخاصّة تلك المقالات التي نشرت بجريدة البصائر. وجدير بنا في هذا المقام أن نذكر العرائض التي كانت تصدر عن جمعية العلماء المسلمين، وما كتبه الشيخ عبد الحميد بن باديس من خامات أساسية للثّورة الجزائرية، وهو صاحب صيحة: فإذا هلكت فصيحتي، تحيا الجزائر والعرب. فضلا عما أدّته جمعية العلماء المسلمين من دور رياديّ متميّز، وجهد منظّم مدروس في الرقيّ بتعليم اللّغة العربية.

كلّ هذا وذاك أفضى إلى تكوّن روافد متشابكة صبّت كلّها في أرض الأدب الجزائري الثّوري، وجعلت منه أدبا جيّدا في عمومه بالرغم من كلّ الظّروف؛ من أميّة وجهل واستعمار... ولعلّ هذه الظّروف كلّها نقطة قوّة هذا الأدب.

"إنّ الحديث عن جمعية العلماء المسلمين، يستدرجنا إلى القائمة التي كتبت للثّورة، أمثال «**محمد الشّبوكي**» (ت 2005) شاعر الجهاد والعلم، وقد كان عضوا إداريا في جمعية العلماء المسلمين، فضلا عن نضاله في المنظّمة المدنية لجبهة التّحرير الوطني، وهو صاحب قصيدة "جزائرنا يا بلاد الجنود"، والشّاعر العلم «**محمد العيد آل خليفة**» صاحب نشيد "من جبالنا طلع صوت الأحرار". وكذا الشّاعر «**محمد صالح رمضان**» (ت 2008) صاحب المسرحية الدّينية "النّاشئة المهاجرة"، وكانت قد نشرت بجريدة البصائر في نهاية الخمسينيات من القرن الماضي، ومعنى ذلك أنّها زامنت الثّورة التّحريرية المظفّرة"[22]. ولا ينبغي أن تفوتنا الإشارة إلى مآثر الشّعر الملحون، التي لا تعدّ ولا تحصى منذ بداية المقاومة إلى ما بعد الاستقلال.

إنّ كلّ تلك التّمظهرات لدليل على أنّ "حياة الأدب إن لم تتّصل بنفس الأديب وروحه، وإن لم يظهر وحيها في آثار حياته، كان الأدب فاترا ضعيفا، لأنّه لا يصف الواقع ولا يجلي الحقيقة، وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب في أدبه أن يتصل

ما يكتب بقلبه وعقله وكلّ حياته"[23]، وهذا ما حدث للأديب الجزائري في تفاعله مع ثورة الأحرار، قبلها وأثناءها وبعدها. لقد كان مخلصا فيما أنشد وكتب وإن لم يصل إلى مستوى الثّورة حسب زعم البعض فذلك عائد إلى طبيعة الثّورة الجزائرية الأسطورية.

4. خاتمة:

أهابت الثّورة بأدبائها إلى عالم جديد وحرّرت أفكارهم من قيود الاستعمار، فازدهت أعمالهم بالصّور الجديدة والخيال السّابح في فضاء لم يطله الشّاعر العربي الأوّل، لا تقاليد المطلع الطّلَلي، أو الغزلي، ولا تكلّف ولا اعتماد على الأوصاف المادّية، ومع ذلك وجدنا فيه بعض الخفقات الإنسانية العذبة الجذّابة[24]، وهكذا كان من حقّنا أن نفاصل في قيمة أدب الثورة، فنزيد في قيمته القِراط والقيراطين، والجدير بالذّكر أن ظاهرة التّجديد في أدب الثورة امتدت إلى ما بعدها.

وما ذلك كلّه إلاّ لأنّ:

- ثورة الجزائر ثورة فريدة من نوعها.
- أدباء الثورة تجنبوا التّكلف.
- أدباء الثورة اهتموا بقول شعر يؤرّخ ويوثّق ويتجاوب مع أفكارهم وهمومهم في فترة الاستعمار.
- المسألة اللّغوية في الجزائر، إبان الاستعمار، ألقت بتداعياتها على مستوى الأدب الجزائري.
- اللغة العربية ركن من الأركان العتيدة التي أرادت فرنسا طمرها وما استطاعت.
- عربية الأدباء كانت مضطهدة ومع ذلك كتبوا بها أدبهم.

المجد والخلود لثورتنا ولشهدائنا ولأدبائنا.

5. مراجع البحث:

أ/ الكتب العربيّة:

1. أبو قاسم سعد الله، كتاب تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.
2. بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، تصدير: د. بلقاسم سعد الله. صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر، منشورات الحضارة، 2012.
3. جابر عصفور، نقاد نجيب محفوظ، دت، دط.
4. رشيد هارون، مقالة: الأسس النّظرية لنقد النقد، مديررية تربية بابل، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مجلد/ 2، العدد1، حزيران 2012.
5. عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1830- 1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار العربية للكتاب، الجزائر 1983.
6. عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830 - 1962)، رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، وثورة أول نوفمبر 1954، 2008.
7. محمد الطاهر يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، شركة الشهاب، الجزائر.
8. محمد طمّار، تاريخ الأدب الجزائري، وزارة الثقافة، 2007.
9. مفدي زكريا، اللّهب المقدّس، موفم، للنشر، الجزائر 2007.

ب/ المقالات:

1. خالد عاشور، أدب الثّورة وأدباؤها، الموجة الأولى، مجلة الديموقراطية.
2. عبد الرزاق القلسي، مقالة: الشّعر والثّورة / وثورة الشّعر، مجلة: القدس العربي، عدد الأحد 23 ماي 2011.

3. عبد الملك مرتاض، هؤلاء هم أصدقائي، ملامح من ذكرياتي مع الأدباء العرب، البصائر.
4. كبريت علي، مقالة: أدب الثّورة الجزائرية: أطروحة في المنهج ومقاربة في المحتوى، مجلة: المصادر، كلية اللغات والآداب جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، المجلد 16، العدد 29.

6. قائمة الإحالات:

[1]– ينظر: عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830 – 1962)، رصد لصور المقاومة في الشعر الجزائري، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية، وثورة أول نوفمبر 1954، 2008.

*– وهذا ما حدث مع الشّاعر الفذّ، محمد العيد آل خليفة، عندما ذكر الأوراس وبأنّها ستؤجج نارها.

[2]– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، تصدير: د. بلقاسم سعد الله. صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسين لاستقلال الجزائر 2012. منشورات الحضارة.

[3]– ينظر: نفسه، ص 30.

**– نقد النّقد هو بحث معرفي موضوعه النقد الأدبي، ويتقاطع في مباحثه مع جملة من السياقات المتصلة بالبحث في ميدان الإبداع بصورة عامة، مثل النّظرية والتّنظير النّقدي. ونقد النقد يدور حول مراجعة "القول النقدي" ذاته، وفحصه، بمعنى مراجعة مصطلحات النّقد وبنيته المنطقية، ومبادئه الأساسية وفرضياته التّفسيرية، وأدواته الإجرائية. وهو وليد تراكم معرفي موغل في القدم قدم الأدب نفسه، وللحديث عن المفهوم ولنكون أكثر إحاطة به من حيث هو أداة عمل نقدية، سننطلق من عبارة أدونيس: "إن أدب الكاتب، يوجب أدب القارئ".

[4]– جابر عصفور، نقاد نجيب محفوظ، د ت، دط، ص254.

[5]– رشيد هارون، مقالة: الأسس النّظرية لنقد النّقد، مديرية تربية بابل، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، مجلد/ 2، العدد1، حزيران 2012، ص121.

[6]– بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، ص11.

[7]– نفسه، مقدمة. الطبعة الأولى.

[8]– نفسه، ص11 و12.

[9]– نفسه.

[10]– نفسه، ص17.

[11]– بلقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء العاشر، المكتبة الشاملة الحديثة، ص494.

[12]– ينظر: محمد الطاهر يحياوي، أحاديث في الأدب والنقد، شركة الشهاب، الجزائر، ص62.

[13] – ينظر: خالد عاشور، أدب الثورة وأدباؤها، الموجة الأولى، مجلّة الديموقراطية، مقدمة الكتاب.

[14]– نفسه، ص10.

[15]– عبد الرزاق القلسي، مقالة: الشعر والثورة / وثورة الشعر، مجلة: القدس العربي، 2011.

[16] – ينظر: نفسه، ص03.

[17] – عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، 1830– 1974، المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار العربية للكتاب، الجزائر 1983، ص05.

[18] – محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، وزارة الثقافة، 2007، 288.

[19]– مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص17، موفم للنشر، الجزائر 2007.

[20]– عبد الملك مرتاض، هؤلاء هم أصدقائي، ملامح من ذكرياتي مع الأدباء العرب، البصائر، الجزء الأوّل. ص76.

[21]– نفسه.

[22]– ينظر: عبد الملك مرتاض، هؤلاء هم أصدقائي، ملامح من ذكرياتي مع الأدباء العرب، البصائر، الجزء الاوّل. ص66.

[23]– نفسه، ص10.

[24] – ينظر: محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، 345.